دروس من فكر الشهيد مطهري - تلخيص وتحرير -

٢٠









الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

نظرة عامة في فلسفة التاريخ
والمجتمع
و(الإتجاه الديالكتيكي)

الكتـــــاب نظرة عامة في فلسفة التاريخ والمجتمع و(الاتجاه الديالكتيكي)

طباعة ونشر مركز نون للتأليف والترجمة

الطبعـــة الاولى تشرين الأول ٢٠٠٥م -١٤٢٦ هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

سلسلة إحياء فكر الشهيد مطهري قدس سره

نظرة عامّة في فلسفة التاريخ والمجتمع و(الإتجاه الديالكتيكيّ)

إعداد ونشر

مركز نون للتأليف والترجمة



الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وعلى آله الأخيار المنتجبين.

مهما تغيّرت الظروف فإنّ الفكر الأصيل يبقى على أصالته، ومهما تبدّلت الأحوال فإنّ الكلام المحكم بالدليل يبقى على إحكامه، فالأصالة والإحكام أساس الثبات والدوام، ومن هنا نجد الإمام الخميني الراحل قدس سره يوصي «... الطبقة المفكرة والطلاب الجامعيين ألا يدعوا قراءة كتب الأستاذ العزيز (الشهيد مرتضى مطهري)، ولا يجعلوها تُنسى جرّاء الدسائس المبغضة للإسلام...

فقد كان عالماً بالإسلام والقرآن الكريم والفنون والمعارف الإسلامية المختلفة فريداً من نوعه... وإن كتاباته وكلماته كلها بلا أيّ استثناء سهلة ومربّية».

وكذلك نجد قائد الثورة الإسلاميّة سماحة السيد علي الخامنئي دام ظله يصفه بأنّه: «المؤسس الفكري لنظام الجمهورية الإسلاميّة،... وأنّ الخطّ الفكري للأستاذ مطهري هو الخط الأساس للأفكار الإسلامية الأصيلة الذي يقف في وجه الحركات المعادية...

إنّ الخط الذي يستطيع أن يحفظ الثورة من الناحية الفكرية هو خط الشهيد مطهري، يعني خط الإسلام الأصيل غير الإلتقاطي...

وصيّتي أن لا تدعوا كلام هذا الشهيد الذي هو كلام الساحة المعاصرة، ... واجعلوا كتبه محور بحثكم وتبادل آرائكم وادرسوها ودرّسوها بشكل صحيح...».

حول الكتاب

هذا البحث مأخوذ من كتاب للشهيد مرتضى المطهري تحت عنوان «نهضة المهدي ﷺ في ضوء فلسفة التاريخ»، ترجمة: محمد علي آذرشب.

تمهيد

هذه الدراسة عبارة عن نظرة عامّة في فلسفة التاريخ والمجتمع، ونقوم بتقسيمها إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: نتعرّض فيها إلى إمكانية دراسة التاريخ والمجتمع، ثمّ نشرع في عرض النظريّات المختلفة في فهم وتفسير تكامل التاريخ، ويشمل ذلك بيان اتجاهين، فنبيّن في هذه المرحلة الاتجاه الديالكتيكيّ في تفسير تكامل التاريخ.

المرحلة الثانية: نتعرّض فيها إلى الاتجاه الإنسانيّ في تفسير تكامل التاريخ.

الأسئلة

١ ـ هل يُمكن دراسة المجتمع والتاريخ؟
٢ ـ كيف ينظر القرآن إلى التاريخ؟
٣ ـ كيف تتمّ التحوّلات التاريخيّة؟
٤ ـ ما منشأ الصراع الدائم عبر التاريخ؟
٥ ـ كيف يكسب النضال مشروعيّته وقدسيّته؟
٦ ـ هل تؤثّر الفوضى إيجاباً في تكامل المجتمع والتاريخ؟
٧ ـ هل للإصلاحات دور في تكامل المجتمع؟
٨ ـ على أيّ أساس يقوم الاتجاه الإنساني في تفسيره لتكامل التاريخ؟
٩ ـ ما هو الخلاف بين الاتجاهين الديالكتيكيّ والإنسانيّ؟

المرحلة الأولى

إمكانية دراسة التاريخ والمجتمع:

تختلف النظرة لدى المفكرين إلى أحداث التاريخ، ويمكننا أن نشخّص نظريّتين متباينتين في التعامل مع التطوّرات والتغيّرات التاريخية:

النظريّة الأولى:

يعتقد أصحابها أنّ أحداثَ التاريخ ليست سوى سلسلةٍ من المصادفات والاتفاقات التي لا تنضبط تحت قاعدة عامّة[1]. ويتمّ ذلك وفق البيان التالي:

يتكوّن المجتمع من أفراد بطبائعَ شخصيّةٍ وخاصّة، تؤدّي

(١) ليس المراد من الصدفة هنا أن تحدث ظاهرة ما بلا علة؛ إذ الطبيعة خالية حتماً من الصدفة الواقعية هذه. بل المراد من الصدفة هنا: الصدفة بشكل نسبيّ؛ أي أن لا تكون الظاهرة نتيجة طبيعيةً لعمل ما، ومثاله: أن تخرج يوماً من المنزل في ساعة ما فتلتقي بصديق لك صدفة كان قد خرج لقضاء بعض أغراضه. وهذه الصدفة لا تخضع لضوابط عامّة ولا لقوانين علميّة.

حركتهم ونشاطاتهم النابعة من دوافع فرديّة إلى سلسلة من المصادفات، تسبِّب هذه المصادفاتُ التغييراتِ التاريخيّة.

وإذا لم يكن للمجتمع شخصيّة مستقلّة، وقامت مسيرته على مجموعة اتفاقات؛ بحيث لم تنضبط أحداث التاريخ تحت قاعدة عامّة، فإنّ التاريخ لا يكون صالحاً للدراسة ولا يشكِّل موضوعاً للفكر، فيفتقد بالنتيجة لأيّ عطاء تربويّ.

النظريّة الثانية:

ترى في المجتمع وجوداً مستقلاً عن وجود الأفراد.

وطبقاً لهذه النظرية فإنّ شخصيّة المجتمع غير شخصية الأفراد، حيث تتكوّن شخصيةٌ واقعيةٌ للمجتمع، وهذه الشخصيّة هي عبارة عن تركيب مكون من التفاعل الثقافي للأفراد.

ويؤمن أصحاب هذا الاتجاه، ونتيجة لما تقدّم، بأن المجتمعَ جزءٌ من أجزاء الطبيعة يخضع لقوانينها الكلية وقواعدها العامة، كأيّ تركيب آخر من تراكيبها.

وإذا كان للمجتمع قوانين كليّة وضوابط عامة تؤثّر في مسيرته، فإنّه يصلح لأن يكون موضوعاً للفكر وأساساً

للدراسة، ويكون جديراً بأن يُستفاد منه ويُعتبر.

النظرة القرآنية:

عندما يذكر القرآنُ الكريم التاريخَ فإنّه يروي أحداثه كمصدر للتفكّر والاعتبار، وينطلق في قسم من دروسه - على الأقل - من حياة الأمم والجماعات: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[١]. فالتاريخ بحسب القرآن مصدرٌ تعليميٌّ مثمرٌ ومعطاء، وهو يؤكّد على أمرين:

أولاً: يؤكّد على أنّ للتاريخ ضوابط وموازين عامة.

فالقرآن رفض بشدّة النظرة العبثيّة إلى التاريخ، وأشار إلى وجود قواعد كليّة وعامّة: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ (٢).

ثانياً: كما يؤكّد على أن لإرادة الإنسان الدور الحاسم في تعيين مسيرة حركة التاريخ.

ويشير القرآن إلى هذه القاعدة التربويّة التي تحكم التاريخ ضمن حقل قوانينه العامة، وذلك حين يؤكّد أنّ

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٣٤ ـ ١٤١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

البشريّة إنّما ترسم مصيرها بيدها كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[١].

وباجتماع هذين الأمرين، يتّضح أنّ العطاء التعليميّ للتاريخ هو عطاء عمليّ، ولو اقتصرنا على وجود قواعد وموازين عامة دون أن يكون للإنسان دور فيه لكان عطاؤه نظريّاً محضاً.

الهدف من السرد القرآنيّ للأحداث التاريخيّة:

من هذا المنطلق يسرد القرآن الوقائع التاريخيّة، أي يبيّنها للإستفادة والإعتبار منها؛ فإنّه على مسرح التاريخ القرآني عندما يبرز دور للمستكبرين في مقابل دور المستضعفين، وينشب الصراع بين هاتين الفئتين، متخذاً طابعاً إنسانيّاً لا ماديّاً طبقيّاً، فإنّ هذه الأحداث تقع في خانة الصراع الدائم والمستمر بين قوى الحقّ وقوى الباطل...

بهذا الشكل يعطي القرآن العوامل الأخلاقية والاجتماعية دوراً رئيساً في مسيرة التاريخ، ويؤكّد في الوقت ذاته أنّ الصراع بين الفريقين ذو هويّة معنويّة إنسانيّة لا ماديّة طبقيّة.

---

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

هكذا نفهم الصراع بين النبي إبراهيم عليه السلام والنمرود، وبين النبي موسى عليه السلام وفرعون... فإنّ القرآن يرسم هذه الصراعات بناءً على أنّ لكل عصر نمروداً أو فرعوناً، ولكلّ نمرودٍ وفرعونٍ إبراهيمَ وموسى... وفي هذه الصراعات ينتصر الحقّ حيناً والباطل حيناً آخر. فيدعونا القرآن الكريم إلى الاستفادة من عِبر هذه القصص.

ولو كان التاريخ مجرّد مجموعة إتفاقات وصدف لما كان للقصص القرآني التاريخيّ أيّ عطاء تعليميّ، ولتبدّلت أحداثه إلى أساطير لا تصلح إلا للتسلية والسمر.

تكامل المجتمع والتاريخ:

سنستعرض إتجاهين مختلفين في تفسير تكامل التاريخ، وذلك بالقدر الذي يتعلّق بهدفنا من مسألة انتظار الفرج والأمل بالمستقبل[1].

الاتجاه الديالكتيكيّ أو الآليّ في تفسير تكامل التاريخ:

أولاً: تكامل الطبيعة:

(١) ومن هنا يعتبر هذا البحث مقدمة أساس لبحث يأتي إن شاء الله تحت عنوان (نهضة المهدي).

يفهم هذا الاتجاه التطوّر في الطبيعة على أنّه نتاج الصراع بين المتناقضات، ويتمّ وفق الخطوات الأربع التالية:

١ ـ إنّ الطبيعة في حركة مستمرة دؤوبة، فهي لا تعرف السكون مطلقاً، ولا تعيش الثبات.

٢ ـ تترابط أجزاء الطبيعة بشكل وثيق، فكلّ جزءٍ منها يتأثّر بالأجزاء الأخرى ويؤثّر فيها، ولذلك عندما تُدرس الطبيعة فلا بدّ أن تُدرس أجزاؤها على أنّها مترابطة غير مفكّكة أو مجزّأة.

٣ ـ تنشأ الحركة في الطبيعة بسبب صراع المتناقضات[1]،

---

(١) لا بد أن نشير هنا إلى أنّ مسألة الارتباط والحركة والتناقض في أجزاء الطبيعة لا يختص بها الاتجاه الآليّ والديالكتيكي، كما يحاول أصحاب هذا الإتجاه الإيحاء به. فإنّ الفلاسفة الإلهيين هم أوّل من نظر إلى أجزاء العالم على أنّها مرتبطة فيما بينها ارتباطاً عضوياً. كما يعتقد بذلك أيضاً أصحاب الاتجاه الميتافيزيقي. فإنّ أرباب **الاتجاه الميتافيزيقيّ لا ينظرون** إلى الأشياء باعتبارها ثابتة وساكنة، بل يعتبرون سكون الطبيعة أمراً نسبياً، فيما الثبات من خصائص ما وراء الطبيعة. وكذلك يؤمن التفكير الميتافيزيقيّ بالتضاد بين عناصر الطبيعة، بل يعتبره شرطاً لازماً لدوام فيض الباري.

نعم، يتساهل أصحاب الاتجاه الديالكتيكي في عرض فكر غيرهم حيث يرمون أيّ اتجاه غير ديالكتيكيّ بعدم القول بالارتباط والحركة والتناقض، ويعتبرونها مختصة بهم.

وفي الواقع، فإنّ الذي يختصّون به هو:

١. اقتصارهم في فهمهم لتطوّر الطبيعة على أساس الصراع بين الأجزاء، وتفسيرهم للتكامل بالتالي على أساس التناقض وحده، مع اعتبارهم أنّ كل ظاهرة تحمل في أحشائها فناءها. أمّا أصل فكرة التناقض، فليست من مبتكراتهم.

٢. يقولون بديالكتيكيّة الفكر، ويبنون على أنّه جزء من الطبيعة يخضع لقوانينها، وفقاً للارتباط والحركة والتناقض، فهكذا يتطور الفكر في نظرهم.

وبالمناسبة لا بأس بالتنبيه على عدم التسرّع في إلحاق الفكر الإسلاميّ بأحد الإتجاهين ـ الديالكتيكي أو الميتافيزيقيّ ـ؛ إذ للإسلام فكر يختصّ به، قد يشترك جزئياً مع كلّ واحد من الإتجاهين ويختلف معه في نواحٍ أخرى.

ويشكّل هذا الصراع أساس كل تطوّر، ويتمّ على الشكل التالي:

تتجه كلّ ظاهرة طبيعية تلقائياً نحو نقيضها، يأخذ النقيض في النموّ شيئاً فشيئاً بحيث يصبح قادراً على مواجهة تلك الظاهرة. هكذا ينشب الصراع بينه وبينها؛ فالظاهرة تريد الحفاظ على نفسها والنقيض يريد أن يبدّلها.

٤ ـ يشتدّ الصراع بين الظاهرة ونقيضها، ويستمرّ إلى أن يبلغ ذروته، ثمّ تحدث ثورة تنتهي لصالح النقيض المتمثّل بالقوى الجديدة على حساب الظاهرة والقوى القديمة. وهكذا تتبدّل الظاهرة بنقيضها الذي كانت تتجه تلقائيّاً نحوه[١].

في المرحلة اللاحقة ينشب صراع جديد بين هذا النقيض ونقيض آخر فيتحوّل إليه، ونفي النفي هذا نوع من التركيب، تتواصل به حركة المجتمع والتاريخ بشكل حتميّ وجبريّ ويحصل التكامل، وهكذا...

والخلاصة أنه وفقاً لهذه النظرية هناك أصل، يمكن أن نسمّيه «الأطروحة»، ينقلب إلى نقيضه «الطباق»، فيما بعد

(١) من هنا يقال: إنّ كلّ ظاهرة تحمل في أحشائها عوامل فنائها.

يأتلف النقيضان ليشكّلا تركيباً واحداً «التركيب». ثمّ يصير هذا التركيب أصلاً و«أطروحة» جديدة تطوي المراحل نفسها...

وثلاثيّ «الأطروحة والطباق والتركيب» هو المسمّى بحسب أصحاب هذا الاتجاه بالمثلّث الهيغليّ.

الطبيعة بحسب هذا الاتجاه لا تكون هادفة:

يعتبر هذا التفسير الطبيعة عنصراً غير هادف، فهي لا تنشد كمالها، بل على العكس تتجه بشكل دائم نحو نقيضها، أي نحو الاندثار. وهذا الاندثار بدوره يحمل في طيّاته عوامل فنائه، وبهذا المسير غير الهادف يحصل تكاملها وتطوّرها.

فتكاملها لم يكن الهدف المنشود لها بل حصل على أثر تركيب الأضداد.

ثانياً: تكامل المجتمع والتاريخ:

يعتبر هذا الاتجاه أنّ العامل الأساسي الذي يشيّد المجتمع، والسبب الرئيس الذي يؤدّي إلى الحركة فيه وبالتالي إلى تكامله، هو العمل الإنتاجيّ وتطوّر آلات

الإنتاج[١].

فبحسب المنظّرين لهذا الاتجاه إنّ العامل الاقتصادي هو أساس حياة البشريّة، هو الذي يخلق علاقةً بين الأفراد تنبثق عنها مجموعة العلاقات الأخرى، كالعلاقات الإجتماعية والسياسيّة. ولذا قيل: إنّ الاقتصاد هو الذي يشكّل البناء التحتيّ للمجتمع، الذي يؤدّي تغيّره إلى تغيّر كل الأبنية الفوقيّة.

ويتمّ التطوّر والتكامل في المجتمع والتاريخ وفق الخطوات التالية:

- يشكل التاريخ جزءاً من أجزاء الطبيعة، ولذا فإنّه يطوي نفس مراحلها لكن مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ عناصر المسألة التاريخيّة هم أفراد البشر، فهو حركةٌ وصراعٌ دائمٌ بين مجموعات فتيّةٍ جديدةٍ ومجموعاتٍ سابقة.

- إنّ كلّ جيلٍ جديدٍ من أفراد الإنسان يحمل أفكاراً أكثر تطوّراً تؤدّي إلى زيادة الإنتاج؛ إذ الإنسان مزوّد بالقدرة على تطوير آلات الإنتاج.

(١) ومن هنا صح أن نطلق عليه اسم: الإتجاه الآلي.

- توجِد أفكارُ القوى الفنيّة الحديثة علاقاتٍ إقتصاديّة جديدة تنبعث منها علاقات اجتماعية.

- تنمو هذه القوى وتصبح قادرة على الوقوف بوجه القوى القائمة.

- ينشب صراع بين الفريق الرجعي، وقوامه تلك القوى التي ترتبط مصالحها بالوضع الاقتصاديّ القديم والتي ترى ضرورة بقاء الأوضاع على ما هي عليه، وبين الفريق التقدميّ الذي يتشكل من القوى الفنيّة بوسائلها الإنتاجيّة المتطورة، وترتبط مصالحها بنظام إقتصادي جديد.

- يشتدّ هذا الصراع ويحتدم ليبلغ ذروته، فتحدث ثورة يتبدّل فيها المجتمع بزوال وفناء النظام القديم وحلول النظام الجديد.

وهكذا يكون هناك تأثير متبادل بين الإنسان والآلة، الإنسان يخلق الآلة، والآلة تخلق الإنسان الجديد.

فيما بعد تطوي هذه المرحلة الجديدة المسيرة نفسها، لتتواصل مراحل التاريخ، وهكذا..

نتائج الاتجاه الآليّ في تفسير تكامل التاريخ:

١ ـ مفهوم القديم والجديد:

بحسب هذا التفسير، لا ينطلق مفهوم القديم والجديد من إطار ثقافيّ. فإنّ مفهومَ القديم والجديد مفهومٌ إقتصاديّ بحت: تتشكّل القوى الرجعيّة من الطبقة المرفهة لأنّها المنتفعة من الأوضاع الإقتصادية الحالية، فتطالب باستمرارها وثباتها، فيما تتشكل القوى التقدميّة من الطبقة المسحوقة والتي تتمتّع بأفكارٍ إنتاجيةٍ متطوّرة وتطالب بتغيير الأوضاع الحاليّة.

أمّا العلاقات الثقافيّة والإجتماعية وما شابه فإنّها تنبثق من العلاقات الإقتصادية، فإنّ محتوى التفكير الإجتماعيّ للأفراد يتكوّن من خلال مكانتهم الطبقيّة وظروفهم الاقتصاديّة.

٢ ـ التسلسل المنطقيّ للتاريخ:

تتسلسل المراحل التاريخية بشكل منطقي جبريّ، كأيّ عنصر طبيعيّ آخر، فالتاريخ يَعبُر مراحلَه بالترتيب ولا يمكنه القفز فوق أيّ مرحلة: فكما أنّ النطفة لا يمكن أن تصير مضغة دون أن تمرّ بمرحلة تكوّنها علقة، كذلك

الرأسمالية ـ مثلاً ـ مرحلة تاريخية تتوسط مرحلة الإقطاع ومرحلة الإشتراكيّة، فمن المستحيل أن ينتقل المجتمع من الإقطاع إلى الاشتراكية دون أن يمرّ بالرأسمالية[1].

٣ ـ وصول كلّ مرحلة إلى ذروتها:

من الضروريّ أن تبلغ كلّ مرحلة من المراحل ذروتها لتنتقل إلى مرحلة جديدة أخرى. فإنتظار مرحلة مقبلة دون أن تبلغ المرحلة الراهنة ذروتها يشبه انتظار الولادة قبل أن تطوي النطفة مراحل الجنينية، فهذه في الواقع محاولة إجهاض لا ولادة!

٤ ـ قدسيّة النضال:

يقوم تكامل المجتمع على أساس الصراع بين المتناقضات ـ كما تقدّم ـ، ومن هنا يكتسب النضال قدسيّته. فإنّ كلّ صراع بين القديم والجديد يدفع المجتمع إلى التكامل وبالتالي يُعتبر نضالاً مقدّساً كيفما تلوّن، وليست قدسيّة النضال نابعةً من كونه دفاعاً عن حقٍّ أو ردّاً لهجوم!

(١) من هنا فأصحاب هذا المنطق يطلقون اسم «الاشتراكيين المثاليين» أو «الاشتراكية الخيالية أو الطوباوية» على الاشتراكيين الذين أرادوا تطبيق الاشتراكية دون أن يراعوا جبر التاريخ والتسلسل المنطقي لمراحله. خلافاً للاشتراكيين الماركسيين الذين يقيمون فكرهم على أساس التسلسل المنطقي لحلقات التاريخ.

٥ـ إثارة الفوضى:

بما أنّ تكامل المجتمع هو نتيجة صراع المتناقضات، فإنّ كلّ ما من شأنه توسيع الثغرات وتأجيج هذا الصراع فهو عامل يسرّع في عملية انتقال المجتمع من مرحلة إلى أخرى أسمى وأرقى. ولمّا كانت عمليّة إثارة الفوضى والاضطرابات تنهض بهذا الدور، فهي مشروعة بل مقدّسة وفق هذا المنطق.

٦ـ الإصلاحات:

تؤدي الإصلاحات الجانبيّة والجزئيّة إلى تضييق الفجوات والثغرات، فهي تخفض من حدّة التناقضات وتؤدّي بالتالي إلى تأخير موعد انفجار الثورة والانتقال إلى مرحلة جديدة... فهي إذاً عامل يؤخّر تكامل المجتمع، لذا تُعتبر هذه الإصلاحات خيانة وتخديراً للمجتمع ووقوفاً بوجه تكامله.

المرحلة الثانية

الإتجاه الإنساني أو الفطريّ في تفسير تكامل التاريخ[1]:

يقع هذا الاتجاه في الطرف المقابل تماماً للاتجاه الديالكتيكيّ الآلي، ويعطي فهماً جديداً وتفسيراً آخر لعملية بناء المجتمع وتكامل التاريخ.

يمنح هذا الاتجاه الأَصالة للإنسان وقيَمه، سواء على مستوى الفرد أم على مستوى المجتمع، في مقابل أن تكون الأَصالة للعامل الاقتصاديّ كما كان قد تبنّى الاتجاه الديالكتيكيّ.

يقوم أصحاب هذا الاتجاه أولاً بمحاولة فهم الإنسان

(١) وقد تقدم منّا الحديث عن الاتجاه الديالكتيكيّ في المرحلة الأولى.

بشكل عميق، فهذا الإنسان تكمن فيه مجموعتان من الغرائز:

١ ـ مجموعة غرائز ماديّة، وهي الغرائز التي يشترك فيها مع الحيوان.

٢ ـ ومجموعة غرائز سامية، كغريزة الدين والأخلاق وحبّ الاستطلاع، وهي التي تميّزه عن الحيوان.

تكامل الإنسان:

يدور الصراع داخل كلّ فرد بين غرائزه الماديّة ذات الهدف الفرديّ المحدود، وبين غرائزه السامية السماوية، التي تتجاوز المصالح الشخصيّة وتهدف إلى تحقيق القيم الأخلاقيّة والعلميّة والعقليّة[1]، وهذا هو التكامل الذي يندفع إليه الإنسان فطريّاً؛ فهو السعي إلى التحرّر من أسر قوى الطبيعة والاتجاه إلى السيطرة عليها، ليزداد استثماره للطبيعة من جهة، وليوثّق ارتباطه بالعقيدة والإيمان من جهة أخرى.

ويبلغ الإنسان ذروة الكمال عندما يصل إلى الحريّة المعنويّة التامّة، المتمثّلة بالارتباط التام بالعقيدة والإيمان،

(١) وهذا الصراع أطلق عليه القدماء اسم النزاع بين العقل والنفس.

بعد السيطرة على العوامل البيئية الطبيعية والتحرّر من الأغلال الحيوانيّة.

وبالنتيجة فإنّ الإنسان يمتلك قدرة التحكّم بنفسه، وليس الإنسان مجرّد كائنٍ مدفوعٍ بغرائزه الماديّة وفردٍ غارقٍ في مصالحه الذاتيّة والآنيّة.

إذاً، ليس تطور آلات الإنتاج هو السبب الحقيقيّ والعلّة للتكامل، بل هو بدوره ناتجٌ ومعلولٌ لاندفاع الإنسان الفطريّ نحو الكمال، فلا ينبغي اتخاذ المعلول (آلات الإنتاج) مكان العلّة (اندفاع الإنسان نحو الكمال).

تكوّن المجتمع:

أمّا المجتمع فإنّه يتكوّن من أجزاء ترتبط في تركيب حقيقيّ، ويتألّف هذا التركيب من:

خصال الأفراد، الدانية منها والسامية، من جهة، بالإضافة إلى خصالٍ للمجتمع نفسه، تشكّل امتداداً لخصالٍ كانت موجودةً سابقاً، من جهة أخرى، لا تتأثر خصال المجتمع بفناء الأفراد، نعم يمنحها تكامل الإنسان نظاماً أفضل.

تكامل المجتمع بحسب التفسير الإنسانيّ:

فمسيرة التاريخ ـ انطلاقاً من هذه النظرة ـ متحوّلة متكاملة كالطبيعة ذاتها، والحركة باتجاه الكمال ضرورة لا تنفصل عن ذات أجزاء الطبيعة بما فيها التاريخ؛ حيث ينسحب الصراع الذي يقوم داخل كل فرد من الإنسان إلى صراع بين المجموعات البشريّة، فينشب صراع بين الإنسان المتكامل المتحرّر روحيّاً، أي الأفراد الملتزمين الذين تخلّصوا من قيود الطبيعة، وبين الإنسان المنحط الغارق في الأغلال الشهوانية الحيوانية. وهذا الصراع الاجتماعيّ هو الذي يؤثّر في تكامل المجتمع والتاريخ وتطوّره، ويتّجه نحو تحرير الإنسان من القيود البيئية والاجتماعية.

بين الاتجاه الإنساني والاتجاه الديالكتيكيّ:

وبناءً عليه فإنّ تكامل التاريخ يعمّ جميع الشؤون المعنويّة والثقافيّة للإنسان، ولا يقتصر على الجانب الآليّ الانتاجيّ؛ فليس الصراع الاجتماعيّ مجرّد صراع طبقيّ بين الفئة المرتبطة بوسائل الانتاج والنظم الاقتصادية القديمة، والتي

تسعى إلى حفظ النظام القائم الذي تستفيد منه، وبين الفئة المحرومة التي ترتبط بوسائل انتاج أكثر تطوّراً، بحيث تنهض بالثورات من أجل تأمين احتياجاتها الماديّة، وتعمد إلى سنّ أنظمة وقوانين جديدة!

ويقدّم الاتجاه الإنساني أمثلة وأدلّة من تاريخ الثورات تؤكّد صحة نظريته، في مقابل ما ذهب إليه الاتجاه الديالكتيكي الآلي:

- فالثورات، لو راجعنا التاريخ، لم تقتصر على الطبقات المحرومة بل نهض بها رجالٌ نشؤوا في طبقات مرفّهة وذات شأن، كنهضات إبراهيم وموسى ومحمّد والحسين عليهم السلام.

- وكذلك لم تكن أهداف الثورات ماديّةً دائماً، بل نهض رجال في سبيل الله لا يريدون جزاءً ولا شكوراً، وخاصّة في صدر الإسلام.

- لم تترافق الثورات دائماً مع تطوّر وسائل الإنتاج، كما في النهضة الدستوريّة في إيران وفي نهضات الشرق والغرب التي قامت مقارعةً للاستبداد والطغيان خلال القرون الأخيرة.

- والحركات الاجتماعية كما كانت وليدة نقص القوانين

الموجودة أحياناً. فقد ولّدها عدم تنفيذ القوانين النظرية أحياناً أخرى، كحركات الشعوبيّة وثورات العلويّين.

نتائج الإتجاه الإنسانيّ الفطريّ في تفسير التاريخ:

١ ـ حقيقة الحروب:

انطلقت الحروب في التاريخ من أسبابٍ متباينةٍ واتخذت أشكالاً مختلفةً، إلا أنّ الحروب التي أخذت بيد المجتمع والإنسانية في سلّم الترقّي هي تلك التي دارت رحاها بين الإنسان الملتزم عقائديّاً المتسامي روحيّاً، وبين العابث المنحطّ المقيّد بالشهوات، فسارت هذه الحروب بالإنسان والمجتمع تدريجيّاً، وبعد اتخاذها صفة إيديولوجية لا طبقيّة آليّة، نحو التكامل.

فالحروب التكامليّة ليست بذات صفةٍ طبقيّةٍ بل تتّخذ صفةً إيديولوجيّة، تسير بالإنسان والمجتمع في سبيل الرقيّ والتكامل في جميع جوانبه، وستكون نهايتها إقامة حكومة العدل وحكومة سيادة القيم الإنسانيّة، أو «حكومة المهديّ» بالتعبير الإسلاميّ.

٢ ـ حلقات التاريخ:

ليس لوقائع التاريخ تسلسل منطقيّ مُلزِم وحلقاتٌ مفروضة جبريّة، بل هي وقائع عامّة. ويشهد لذلك ما حدث في القرن الماضي، حيث اتّجهت بلدان إلى الاشتراكيّة دون أن تطوي مرحلة الرأسماليّة، كما حدث في الاتحاد السوفياتي السابق، والصين، ودول أوروبا الشرقيّة. ولذلك ليس الوصول إلى الذروة يؤدي تلقائيّاً للانتقال إلى مرحلة لاحقة. فقد حدث أن وصلت مرحلة إلى ذروتها دون أن يؤدّي ذلك إلى حدوث تغيير وانتقال إلى مرحلة جديدة، كالرأسماليّة في الولايات المتّحدة وبريطانيا.

كما أنّ الثورة ليست شرطاً ليحصل الانتقال إلى المراحل اللاحقة، بل يمكن الانتقال من مرحلة إلى أخرى من غير ثورة، كأن ينتقل مجتمع ما من البداوة إلى أسمى مراحل الحضارة، بسبب انبثاق إيديولوجيّة معيّنة فيه وانتشار إيمان دينيّ، كما حدث بظهور الإسلام في الجزيرة العربيّة.

٣ ـ قدسيّة النضال:

يكتسب النضال قدسيّته ومشروعيّته فيما إذا استهدف

الدفاع عن مقدّسات إنسانيّة؛ وهو يتّسع ليشمل كلّ نضال يتعلّق بحقوق الفرد أو المجتمع، كالدفاع عن التوحيد الذي يُعتبر من أهمّ مقوّمات سعادة البشريّة، وكالنضال للوقوف بوجه الاعتداء على الحقوق الفرديّة والوطنيّة.

وبالنتيجة فإنّ للجهاد ماهيّة إنسانيّة لا طبقيّة.

٤ ـ الإصلاحات:

تساهم الاصلاحات، حتى لو كانت تدريجيّة أو جانبيّة، في دعم الحقّ في صراعه مع الباطل؛ إذ تكون عاملاً مؤثّراً في ترقّي مسيرة التاريخ لصالح دعاة الحق، فهي تساعد في تكامل المجتمع والتاريخ ولا تقف عائقاً في مسيرته التكاملية.

فالتاريخ لا يطوي مسيرته عبر صراع التناقضات حتى ندين هذه الإصلاحات، ولذا فإنّ هذه الإصلاحات مشروعةٌ بل مطلوبة.

٥ ـ إثارة الفوضى:

يثبت بما تقدّم ـ من شرعية الإصلاحات الجزئيّة وكونها عاملاً يؤثّر في ترقّي المجتمع لصالح دعاة الحق ـ عدم

شرعيّة إثارة الفوضى والاضطرابات، بخلاف الاتّجاه الآليّ الذي يضفي المشروعيّة على مثل هذه الأعمال لأجل خلق الأزمات.

٦ ـ تأرجح منحنى التاريخ:

إنّ الإنسان هو الذي يؤثّر في حركة التاريخ، والإنسان موجودٌ مختارٌ ذو إرادة، لذا يتأرجح منحنى تكامل المسيرة البشريّة بين الهبوط والارتفاع، ويتراوح بين السرعة والبطء بل قد يخيّم عليه السكون أحياناً.

ومن ناحية أخرى فإنّ التاريخ، وللسبب عينه ـ أي تأثير الإنسان المختار فيه ـ لا يسير سيراً تكامليّاً جبريّاً، ولذلك قد لا تكون المرحلة اللاحقة أكثر تكاملاً من سابقتها، وكما يقول (تويمبي): «انحطاط الحضارات أمر لا يمكن رفضه، لكن تاريخ البشرية يطوي بمجموعه مسيرة تكاملية».

٧ ـ التحرّر من أغلال الطبيعة:

تتّجه المسيرة التكامليّة للإنسان نحو التحرّر من أغلال الطبيعة الماديّة والمصالح الفرديّة والجماعيّة لتتخذ طابعَ

الالتزام الفكريّ، وذلك بالسيطرة على عوامل البيئة والظروف الاقتصاديّة، وبالتحكّم بالغرائز الحيوانيّة، كلّ ذلك نتيجة تكامل ثقافة الإنسان واتّساع آفاقه وازدياد التزامه بالإيديولوجيّات التقدّميّة.

٨ ـ أصالة القوى الفكريّة والأخلاقيّة:

يتحكّم بالوجود الإنسانيّ الضميرُ البشريُّ بقوّتيه: الفكريّة ـ أي قوّة الاستدلال والبرهان ـ، والأخلاقيّة ـ أي قوّة النزوع نحو السموّ ـ.

فهاتان القوّتان أصيلتان في وجود الإنسان وتمكّنانه من التحكّم بمتطلباته الماديّة.

٩ ـ عدم انطباق المثلّث الهيغليّ:

لا ينطبق مثلّث الديالكتيك، «الأطروحة والطباق والتركيب» على الطبيعة فضلاً عن التاريخ، فليس كلّ ما يحدث في الطبيعة هو من تبدّل الشيء إلى ضدّه، ثم هذا الضدّ إلى ضدّه ليحدث التركيب في مرحلة ثالثة، بل ما يحدث في الطبيعة عدّة إحتمالات:

أ ـ أن يحدث تركيب بين الأضداد بلا تبدّل.

ب ـ أن يحدث تبدّل للأضداد من دون تركيب.

ج ـ أن يحصل تكامل خالٍ من تركيب الأضداد ومن تبدّلها، كتركيب الماء من عنصري الأوكسجين والهيدروجين.

نعم، يمكننا أن نطلق مصطلحات المثلث الهيغليّ على عمليّات التغيّر هذه كلّها. لكنّها تكون في واقعها مفتقدة للعنصر الأساسي الذي تمتاز به الماركسيّة (الصراع بين المتناقضات).

موقع القيم الإنسانيّة في الاتجاه الإنسانيّ الفطريّ:

إنّ من أهمّ ما يتميّز به الإتجاه الفطريّ هو أنّه يعطي للقيم الأصالة في وجود الإنسان، فهو ينشد هذه القيم، ينشد الحقّ والعدالة ويقوم بالتخطيط لبناء مجتمع سامٍ.

وهذا الاتجاه لا ينفي تأثّر الإنسان بالبيئة، إلا أنّه يؤمن أيضاً بأنّ الطبيعة لا تقوى على أن تسيّره مجبراً، بل له القدرة هو الآخر على التأثير فيها.

يتميّز الإنسان إذاً عن سائر الموجودات بوعيه الذي يقدر بواسطته أن يسيطر على نفسه مقابل ظروف البيئة والطبيعة، فيقوّم انحرافاته وينطلق في صنع نقاطٍ مضيئة

في تاريخ البشريّة.

جوهر الاختلاف بين الاتجاه الديالكتيكيّ والاتجاه الإنسانيّ:

في الحقيقة يعود جوهر الاختلاف بين الاتجاهين، الآلي والإنساني، إلى الخلاف في فهم وتفسير الإنسان.

فالاتجاه الديالكتيكيّ الآليّ يعتبر الإنسان مجرّد معلول لمصالحه الماديّة والاقتصادية، **فهذه** المصالح هي التي تفرض عليه تطوير وسائل الانتاج.

وعليه فإنّ كلّ ما ينطوي عليه الإنسان، من مشاعر ورغبات وأحكام وقدرات، ليس سوى انعكاس لظروف بيئته الطبيعية والاجتماعيّة، فالإنسان مجرّد مرآة تعكس ما يحيط به، وهو في واقعه لا يقدر على أيّ حركةٍ مخالفةٍ للظروف المحيطة.

أمّا الاتجاه الفطريّ فيرى أنّ الإنسان يتمتّع بخصال تدفعه إلى طلب الحق، وهو قادر على التحكّم بنفسه، ويستطيع التحرّر من جبر الطبيعة والظروف المحيطة.

وأما التفسير القرآنيّ للتاريخ، والذي تقدّم ذكره، ينطلق دون شكّ من النظرة الثانية. فقد بيّنا أنّ القرآن يؤكّد على تأثير العوامل الأخلاقيّة في مسيرة التاريخ، ويركّز على دور إرادة الإنسان في تعيين مسير حركته، في مقابل أن يكون التكامل قائماً على أساس ماديّ طبقيّ، ويسير بشكل جبريّ لا يتحكّم الإنسان به...

الخلاصة

١ ـ هناك رؤيتان ونظريّتان متباينتان في التعامل مع تكوّن المجتمع والتاريخ:

النظرية الأولى تعتبر أنّ المصادفات والإتفاقات هي التي تؤدّي إلى تكوّن المجتمع والتاريخ، وبناءً على هذه النظرية لا يكون التاريخ والمجتمع صالحين للدراسة.

النظرية الثانية ترى أنّ المجتمع يخضع لقوانين عامّة وقواعد كليّة كأيّ عنصر من عناصر الطبيعة، ولذا يمكننا الاعتبار من سيرة الماضين وحوادث التاريخ.

القرآن الكريم يعتبر التاريخ مصدراً تعليميّاً مثمراً ومعطاءً، فيسرد قصصه ليُتفكّر فيها ويُتأمّل ويُستفاد منها.

٢ ـ نشخّص إتجاهين في تفسير وفهم تكامل المجتمع والتاريخ:

الاتجاه الديالكتيكيّ أو الآليّ: ينطلق هذا الاتجاه في تفسيره لتكامل التاريخ على أساس الصراع بين المتناقضات، بعد الإيمان بأنّ أجزاء الطبيعة هي في ترابط وثيق وحركة دائمة.

٣ ـ التكامل في الطبيعة، وفق هذا الاتجاه، يتمّ على الشكل التالي:

تحمل كلّ ظاهرة في أحشائها نقيضها. ينمو النقيض شيئاً فشيئاً وعندما يصبح قادراً على مواجهة الظاهرة ينشب صراع بينهما ينتهي بثورة يقلب النقيض فيها الأوضاع لصالحه حيث يحلّ محلّ تلك الظاهرة.

ثم يقوم هذا النقيض بطيّ المراحل ذاتها، وهكذا...

٤ ـ بناءً عليه فالطبيعة ليست هادفة، إذ ليس منشأ تكاملها سوى الصراع الحتميّ بين المتناقضات.

٥ ـ وأمّا بالنسبة للتاريخ والمجتمع، فإنّ هذا الاتجاه يعتبر أنّ العامل الرئيس الذي يقوم بتشييد المجتمع ويؤثر في

حركته وتكامله، هو العامل الاقتصاديّ الانتاجيّ.

فالعامل الانتاجيّ يوجِد علاقات اقتصاديّة بين أفراد المجتمع، تنبثق عن هذه العلاقات بقية العلاقات الاجتماعيّة الأخرى وهكذا يتشيّد المجتمع.

أمّا تكامل المجتمع فهو يتمّ وفق صراع المتناقضات وتحت تأثير تطوير العوامل الانتاجية والآليّة، ووفق مراحل الطبيعة نفسها ـ بما أنّه جزء من أجزاء الطبيعة ـ.

٦ ـ من نتائج هذا الاتجاه:

ـ أنّ أساس التكامل والتطوّر في المجتمع هو العامل الاقتصاديّ.

ـ يتمّ التطوّر ببلوغ كلّ مرحلة ذروتها وبعد حدوث ثورة وانقلاب.

ـ يطوي التاريخ مراحله في سيره التكامليّ بشكل جبريّ إلزاميّ لا تلعب فيه إرادة الإنسان ولا اختياره أيّ دور.

ـ وبحسب هذا الاتجاه يكون كلّ نضال يساهم في تكامل المجتمع مقدّساً بغضّ النظر عن أهدافه، وكذلك فإنّ إثارة الفوضى يعتبر أمراً مشروعاً لأنه عامل يساهم في توسيع

الثغرات وتأجيج صراع المتناقضات، وهي الأسس التي يتكامل المجتمع على هَديِها، وهذا على عكس الإصلاحات تماماً.

الاتجاه الإنساني أو الفطريّ:

. يمنح هذا الاتجاه الأصالة في المجتمع للقيم الإنسانية، وليس للعامل الاقتصاديّ والإنتاجيّ.

. يؤمن أصحاب هذا الاتجاه بأنّ الإنسان قادر على التحكّم بغرائزه الماديّة ومصالحه الذاتيّة.

. يلعب الإنسان دوراً محوريّاً في عمليّة تكامل المجتمع، فالتاريخ لا يطوي مسيرة جبريّة مفروضة، إذ الصراع في المجتمع، وعلى مرّ التاريخ، هو صراع بين غرائز الإنسان الماديّة الحيوانيّة وبين غرائزه السامية السماويّة، والهدف من هذا الصراع تحقيق القيم، حيث يسعى الإنسان إلى التحرّر من أسر المادة وقوى الطبيعة بالسيطرة عليها، ويتوجّه نحو توثيق ارتباطه بالعقيدة والإيمان، وهذا هو التكامل الذي يندفع إليه الإنسان فطريّاً.

. تكامل المجتمع والتاريخ وفق هذا الاتجاه يعمّ جميع الشؤون المعنويّة والثقافيّة للإنسان، ولا يقتصر على الشأن الاقتصاديّ كالاتجاه السابق!

ـ من أهمّ نتائج هذا الاتجاه:

١ ـ منح الأصالة لإرادة الإنسان القادر على السيطرة والتحكّم بمتطلباته الماديّة، حيث يسعى في سيره التكامليّ إلى التخلّص من أغلال الطبيعة والاتجاه نحو السيطرة عليها، ليزداد التزاماً عقائديّاً وروحيّاً وخلقيّاً.

٢ ـ الصراعات والحروب التي تؤدي إلى تكامل المجتمع هي تلك التي نشبت بين الملتزمين المتحررين روحيّاً، وبين الغارقين في شهوات الغرائز الماديّة.

٣ ـ ليست مسيرة التكامل مسيرة مفروضة وحتميّة بل تلعب إرادة الإنسان فيها دوراً أساسيّاً.

٤ ـ يكسب النضال قدسيّته ومشروعيّته إذا استهدف الدفاع عن مقدّسات إنسانيّة، كالإصلاحات التي تساهم في دعم الحقّ بوجه الباطل. أمّا إثارة الفوضى والاضطرابات فلا مشروعيّة لها بنفسها.

٥ ـ القرآن يؤيّد هذا التفسير لتكامل المجتمع، حيث يؤكّد على دور إرادة الإنسان وعدم جبريّة مسيرة التاريخ التكامليّة.

الفهرس